

في رحاب الوحدة والتقارب بين المسلمين

د. محمد أكديد^١

الملخص

في هذا المقال توقفنا عند أبرز محطات التواصل بين السنة والشيعة قديما وحديثا، لنعرج على التجربة المغربية، التي توقفنا من خلالها على حب المغاربة لأهل البيت ع ونصرتهم لقضيتهم من خلال تسليط الضوء على عدد من المحطات التاريخية التي عرفت قيام دول علوية بالمغرب كالدولة الإدريسة والدولة الفاطمية، وبمساندة وترحيب من المغاربة الأمازيغ حينها. حيث لازالت الكثير من التقاليد والطقوس والآثار المتواترة عن أهل البيت (ع) ماثلة في عدد من المواقع خصوصا في الزوايا المنتشرة في ربوع المملكة المغربية، والتي اشتهرت بأسماء عدد من الشرفاء العلويين.

من جانب آخر، فقد توقفنا أيضا عند علاقة الجمهورية الإسلامية في إيران بالدول العربية والتي كانت على الدوام متوترة خصوصا مع دول الخليج خلال حرب العراق. حيث ترواحت هذه العلاقة بين مد وجزر خلال السنوات التي تلت هذه الحرب، إلى أن وصلت إلى حد القطيعة خلال الأزمة السورية قبل أن تتعافى وتعود من جديد إلى سكة المصالحة، خصوصا بعد الاتفاق الأخير مع المملكة العربية السعودية والذي توج بوساطة صينية بعد سلسلة من المفاوضات التي أشرفت على إنجاحها أيضا عدد من الدول العربية كالعراق وسلطنة عمان. كما أشرنا إلى بعض أبرز شروط التواصل والتقارب بين الشيعة والسنة من أجل تجاوز الخلاف الطائفي واستثمار المشترك بينهم، ولسد الباب أمام مخططات الهيمنة الاستعمارية وتحقيقا للأمر القرآني حيث يقول تعالى في سورة آل عمران- الآية ١٠٣: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا" صدق الله العلي العظيم.

ختاما فإن الرهان على التقريب بين الشيعة والسنة هو رهان على وحدة المسلمين وتقدمهم من خلال التنسيق بينهم على كافة الأصعدة بعد تجاوز خلافاتهم الطائفية واستثمار المشترك بينهم، الأمر الذي سيحول الدول العربية والإسلامية من مطايا للدول الاستعمارية ومشاتل للأجندات المشبوهة إلى رقم صعب ومؤثر في ظل التحولات الكبرى التي باتت تعرفها المنطقة والعالم.

الكلمات المفتاحية:

الشيعة، السنة، أرضية مشتركة، الخلاف الطائفي، نبذ الفرقة، الحوار، التعاون الاقتصادي.

^١ . دكتوراة في القانون العام والعلوم السياسية-مختبر العلوم الاجتماعية، جامعة الحسن الثاني، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية عين الشق - الدار البيضاء، البريد الإلكتروني: mohamed.akdid@gmail.com، الهاتف المحمول: +212 629688845

المقدمة:

يتحد المسلمون على اختلاف مذاهبهم حول الكثير من الشرائع المشتركة، حيث توحدتهم الشهادتين كركن أساسي من أركان الإسلام، ويتجهون يومياً في صلاتهم إلى نفس القبلة، وفي رمضان تراهم يترصدون هلاله لصيام هذا الشهر المبارك والقيام بأعماله في تنافس عجيب، كما يتحرون تأدية الزكاة بقيمتها وفي وقتها، وعندما يأتي أوان الحج تجد المسلم السني والشيوعي يزاحم بعضهم بعضاً في الطواف والسعي والكل يرفع شعار التلبية، كما يقفون جميعاً على جبل عرفة في مشهد يبعث أمل وحدثهم من جديد، ليحتفل الكل بعد ذلك بعيد الأضحى مع الحجاج كل سنة..

ومع ذلك فقد استطاع بعض المتطرفين دفع المسلمين إلى الطعن في دين إخوتهم وتكفيرهم، بل وشهر السلاح في وجوههم خلال السنوات الأخيرة التي شهدت عودة الخلافات الطائفية التي كادت تغير خريطة المنطقة لصالح أجناس استعمارية مشبوهة. فكيف يمكن تدارك هذه الانزلاقات وإعادة تصحيح مسار الأخوة الإسلامية للخروج من بوثة المواقف والأحكام الجاهزة ووقف هذه الصراعات التي تؤجل اتحاد المسلمين وتطور بلدانهم؟

١ - من تاريخ التواصل والتقارب بين الشيعة والسنة:

لقد تعايش الشيعة والسنة جنباً إلى جنب في كنف الحضارة الإسلامية المزدهرة، وكانوا حاضرين في كل المجالات والفضاءات. في مواطن الاجتهاد والفتوى، وفي ميادين العلم والأدب، وفي ساحات الجهاد والنضال. حيث تتلمذ عدد من علماء السنة الأفاضل على أيدي عدد من أئمة الشيعة مثل أبي حنيفة النعمان (رض) الذي لازم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) لسنتين صحح خلالهما الكثير من مواقفه وأحكامه في الفقه والعقيدة، وكان يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان» يريد السنتين اللتين صحب فيها الإمام جعفر الصادق (ع) لأخذ العلم (الدهلوي، ١٨١٢: ص ٨). وقد شهد له بالأعلمية قائلاً: "ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد الصادق".

وكذلك الإمام مالك بن أنس (رض) الذي أخذ الحديث عن الإمامين محمد الباقر وابنه الصادق (ع)، وقد كان يقدمهما ويحبهما كثيراً. ومن أقواله في الإمام الصادق: اختلفتُ إلى جعفر بن محمد زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلحاً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يُحدِّثُ عن رسول الله إلا على الطهارة، ولا يتكلم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العبادة والزهاد الذين يخشون الله (خولي، ١٩٥١م: ص ٩٤). كما درس الإمام الشافعي (رض) عند مقاتل بن سليمان وهو من أكابر علماء الشيعة الزيدية، وكان يقول فيه: «من أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان».

كما أن هناك الكثير من العلماء والشعراء والقادة ممن خلد التاريخ أسماءهم كانوا على مذهب أهل البيت (ع) الذي يدين به الشيعة، كالفرزدق والكميت بن زيد ودعبل الخزاعي وصفي الدين الحلبي والأمير أبو فراس الحمداني والشريف

الرضي.. ومن الفلاسفة والعلماء ابن سينا وجابر ابن حيان ويعقوب بن إسحاق وأحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه.. ومن القادة التاريخيين المعز لدين الله الفاطمي الذي بنى مدينة القاهرة بمصر واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية، كما شيد بها جامعة الأزهر الشريف، والتي فتحت أبوابها لكل المذاهب الإسلامية دون تمييز، والمولى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) الذي لجأ إلى المغرب بعد معركة فخ التي دارت بين الشيعة والعباسيين بالمشرق، وأسس هناك أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية في هذا القطر، وفي عهد الأدارسة بنيت جامعة القرويين التي كانت تعد مفخرة علمية بأرض المغرب، وتعد من أوائل الجامعات في العالم..

٢- حلقات التواصل والتقارب في التاريخ الحديث والمعاصر:

ومن أبرز حلقات التواصل بين الشيعة والسنة خلال الفترة الحديثة نذكر محاولات رائد النهضة السيد جمال الدين الأسد أبادي المشهور بالأفغاني، والذي حاول التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بين علماء المسلمين بغض النظر عن مذاهبهم واجتهد في السعي من أجل وحدتهم وتجاوز خلافاتهم السياسية والعقدية الضيقة. وخلال فترة الثلاثينيات جرى حوار شيق بين شيخ الأزهر سليم البشري والذي كان يمثل العالم السني آنذاك نظراً لموقع مؤسسة الأزهر الريادي في الفقه والاجتهاد عند السنة، والسيد شرف الدين الموسوي الذي كان يعد من أبرز مراجع الشيعة بלבنا والعالم حينها. حيث توج هذا الحوار بإصدار كتاب "المراجعات" الذي كان له دور كبير في التقريب بين الشيعة والسنة.

يقول الدكتور حامد حفني داود في مقدمة هذا الكتاب: "وليس أدلّ على أثر هذا الكتاب في جيلنا السالف وجيلنا المعاصر، من ظهور جماعة من قادة الفكر في مصر والعراق وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية دعوا إلى التقريب بين المذاهب"، وقد كان يقصد بذلك جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية التي كانت من بين أبرز ثمار هذا الحوار الهادف والمسؤول.

وخلال فترة الخمسينات عقدت مجموعة من اللقاءات المتواصلة بين فقهاء السنة والشيعة كان من بينهم الشيخ محمد تقي الدين القمّي والشيخ محمود شلتوت وأساتذة أجلاء من الأزهر، حيث انكبوا على تدارس نقاط الخلاف الحاصلة بين المذاهبين من أجل تجاوزها وبناء أرضية مشتركة للتواصل والاجتهاد، وقد استطاعوا فعلاً التلاقي في الكثير من القضايا، ليصدر شيخ الأزهر آنذاك محمد شلتوت فتواه الشهيرة بجواز التعبد بالمذهب الجعفري الذي يدين به أغلب الشيعة اليوم، حيث عد ذلك حينها اعترافاً رسمياً من الأزهر وأهل السنة عموماً بصحة هذا المذهب، كما خصصت كراسي في الأزهر لتدريس هذا المذهب. ولا يفوتنا أن نستحضر في هذا الإطار قول الدكتور محمد سيد طنطاوي -شيخ الأزهر: "أنه لا فرق بين السنة والشيعة وأن كل من يشهد أن لا إله إلا الله فهو مسلم، وأن الخلاف، إن وُجد، فهو خلاف في الفروع وليس في الثوابت والأصول، والخلاف موجود في الفروع بين السنة أنفسهم والشيعة أنفسهم".

ومن أبرز الجهود العلمية التي شكلت أرضية للانفتاح بين العالمين نذكر كتابات الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (ق س) من العراق، والذي استفاد المسلمون بمختلف طوائفهم من أبحاثه القيمة خاصة في الفلسفة من خلال كتاب "فلسفتنا" في مواجهة الأطروحات المادية الليبرالية والإشتركية، والإقتصاد من خلال كتابي "إقتصادنا" و"البنك اللاربوي الإسلامي" الذي تبنت رؤيته فيما بعد عدد من الدول الإسلامية لإطلاق مبادرة الأبنك الإسلامية، وكذا جهود الشهيد الدكتور علي شريعاني من إيران في التأسيس للوحدة الإسلامية من خلال كتاباته ومحاضراته القيمة في عدد من الدول الإسلامية، وجهود الإمام المغيب السيد موسى الصدر الذي قام بتعبئة الشيعة والسنة وحتى المسيحيين في حركة المحرومين بלבنا، وأخرج من هاته الحركة أفواج المقاومة اللبنانية (أمل) لصد العدوان الإسرائيلي على البلد ليشعل بذلك شرارة المقاومة اللبنانية، كما أسس لمشروع وطني لازال ماثلا في ذاكرة اللبنانيين إلى اليوم على اختلاف مذاهبهم وأطيافهم، فضلا المبادرات التي قام بها مع عدد من الرؤساء والملوك العرب قبيل اختطافه من أجل التأسيس للانفتاح بين العالمين السني والشيوعي. لكن لوثة الجهل والطائفية كانت على الدوام حاضرة^٢. إذ لولا تدخل بعض الطائفيين وأصحاب المصالح الخفية لإفشال هذا المشروع وتقزيمه لقطع المسلمون أشواطاً في طريق التقارب والوحدة ولعم التوافق كل بلاد العالم الإسلامي، ولما عشنا هذه الصراعات والحروب الطائفية التي أعادت المسلمين سنينا إلى الوراء..

٣- التجربة المغربية وآفاق التقارب:

تاريخيا، لعبت البعثات العلمية المغربية إلى المشرق وما نتج عنها من احتكاك واتصال مباشر بأئمة أهل البيت (ع) وأخذ مبادئ الدين عنهم دورا كبيرا في تهيئة الأرضية لدى المغاربة للقبول بحاكم علوي عليهم. وخلال فترة حكم الأدارسة للمغرب كان لهم فضل كبير في تعزيز وتعميق الولاء لآل بيت الرسول (ص)، حيث يرى عدد من المؤرخين بأن هذا الأمر سوف يمتد إلى خارج المغرب الأقصى من خلال دولة الأدارسة الحموديين الشيعية التي قامت بالأندلس، والتي تعتبر امتدادا فكريا وعقديا للدولة الإدريسية بالمغرب ونتيجة من نتائج الدعوات الشيعية التي سبقتها (السعداني، ٢٠٠٢: ص ١٥٤-١٥٥). كما عرفت منطقة سوس ظهور حركة شيعية تزامنت مع فترة حكم الأدارسة واستمرت مع مرحلة الحكم الفاطمي للمغرب الأقصى تزعم هاته الحركة عبد الله البجلي حيث تبنت المذهب الشيعي فقها وعقيدة (الجراري، ٢٠٠٦، ص ٩٠).. حيث سيستغل الداعية أبو عبد الله الشيعي هذه الأرضية عند وصوله لمنطقة افريقية ببلاد المغرب الأدنى، بالإضافة إلى حالة الضعف والوهن التي كانت تعرفها الخلافة العباسية وسياسات ولائهم الجائرة في بلاد

^٢ من الطرائف في هذا الباب أنه عند إصدار هذه الفتوى جاء أحدهم إلى الشيخ محمد الغزالي مستكرا أمرها، فأجابه سائلا: ماذا تعرف عن الشيعة؟ فسكت السائل قليلا، ثم أجاب قائلا "ناس علي غير ديننا". فقال الشيخ الغزالي رحمه الله للرجل: ولكني رأيتهم يصلون ويصومون كما نصلي ونصوم. فتعجب السائل وقال "كيف هذا؟"، فقال الشيخ "والأغرب أنهم يقرأون القرآن مثلنا ويعظمون الرسول (ص) مثلنا ويحجون إلي البيت الحرام".

المغرب (حسن، ١٩٨٩: ص ٤٣) ليقنع أمازيغ قبيلة كتامة بدعوته الجديدة، حيث سيقضي على حكم الأغالبة فيها، ويقوم بطلب قدوم عبيد الله المهدي من المشرق، والذي سيكون وراء تأسيس الدولة الفاطمية. (خميس وآخرون، ٢٠٠٧: ص ١١) بعد ذلك ستعرف بلاد المغرب الأقصى مرحلة حكم دولة ثار خلالها الكثير من الخلاف حول الأسس العقيدية والمذهبية التي قامت عليها، وهي الدولة الموحدية التي تأسست بجهود محمد بن تومرت سنة ٤٧١هـ، والذي كان يقدم نفسه كعلوي فاطمي من سلالة أهل البيت (ع). وقد سافر من أجل طلب العلم إلى بلاد الأندلس والمشرق كما زار المهديّة بتونس، وأرض الحجاز والإسكندرية بمصر، ليستقر به المقام لمدة متوسطة بالعراق واطب خلالها على حضور حلقات العلماء والنظار والاستماع لأصحاب النحل والمذاهب من الشيعة والمعتزلة والأشاعرة. وبعد عودته إلى المغرب نزل بمدينة فاس سنة ٥١١هـ وجمع حوله مريدين توجه إليهم بالدرس والوعظ والدعوة له سرا على أنه المهدي الذي تنتظره الأمة، (ضيف، ١٩٩٦: ص ١٧٧) ليتوجه بعد ذلك إلى مراكش ويعقد بها منازرات مع علماء الدولة المرابطية وينتصر عليهم مما ساهم في زيادة أعداد أتباعه، مما مكنه من إعلان ثورته على المرابطين سنة ٥١٥هـ وبأنه المهدي المنتظر، (ضيف، ١٩٩٦: ص ١٨٠) وهي العقيدة التي تتمسك بها معظم فرق الشيعة على اختلاف أمر تعيينها لهذا الشخص. إذ سيستمر الحضور الشيعي في المغرب وإن بشكل باهت بعد الدولة الموحدية التي تسامحت مع بعض معتقداتهم التي استثمرها المؤسس محمد ابن تومرت لإنجاح دعوته. حيث بقيت الكثير من مظاهر هذا التسامح بارزة من خلال عدد من الممارسات الشعبية والاعتقادات الرائجة بالمغرب انطلاقاً من طقوس الاحتفال بعيد المولد النبوي التي سنّها الفاطميون خلال فترة حكمهم للمغرب، والكثير من العبارات التي يتميز بها الشعر والملحون الأندلسي المغربي إلى جانب الإنتاجات الأدبية والتعبيرات العامة التي تدلل على حب المغاربة العميق لأهل البيت (ع).

ومن بين أبرز مظاهر حضور التراث الشيعي في الإسلام الشعبي المغربي منح المغاربة لـ"الخميصة" في بعض التعبيرات اسم "يد لالة فاطمة الزهراء"، والتي تحيل أيضاً إلى الخمسة، عدد أصحاب الكساء الذين نزلت فيهم الآية الكريمة: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" (الأحزاب: ٣٣) حسب التفسير الشيعي^٣. ومن ذلك إطلاق المغاربة خصوصاً منهم الأمازيغ أسماء أهل البيت (ع) على مواليدهم، من محمد وعلي وفاطمة الزهراء والبتول والحسن والحسين والمهدي وزينب وسكينة. وتسمية التوأمن بالحسن والحسين. ومن تقاليدهم أنهم يسمّون اسم محمد وعلي وفاطمة، وقلّ ما يفعلون في غيرها^٤.

^٣ أورد ابن كثير بخصوص هذه الآية طرقاً لحديث الكساء. منها عن الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبي (ص) كان في بيته، فأنته فاطمة (رض)، ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه فقال لها: "ادعي زوجك وابنك". قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو على منامة له على دكان. تحته كساء خبيري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فأنزل الله، عز وجل، هذه الآية: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا). قالت: فأخذ فضل الكساء فغطاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا"، قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال: "إنك إلى خير، إنك إلى خير".

^٤ أنظر مقال "التشيع كمكون سوسيو-ثقافي مغربي" للباحث المغربي في الشأن الشيعي إدريس هاني. نشر بجريدة هيسبريس الإلكترونية بتاريخ الأربعاء ٢٢ شتنبر ٢٠٠٩. بتصرف

ويبقى إحياء المغاربة في الكثير من المناطق لذكرى عاشوراء الأليمة من أبرز هذه المظاهر التي يجسدون من خلالها تضامنهم مع أهل البيت (ع) ومشاركتهم أحزان هاته المأساة، حيث يؤكد الدكتور الجراري نقلا عن والده الفقيه عبد الله الجراري عند جوابه عن سؤال استفتي فيه عن رأي الدين في جماعة من الناس ما بين رجال ونساء وأطفال يقفزون فوق لهيب النار وكذلك في نساء يرددن بلفظ واحد "بابا عيشور دليت عليك شعوري". فأجابهم الفقيه عبد الله الجراري أن هذه عادات أحدثها الشيعة كحزن منهم على مقتل الحسين بكر بلاء وقد دخلت المغرب نتيجة استيطان عدد من الدول الشيعة فيه حيث نقلت معها عوائدها وممارساتها (الجراري ١٩٩٩: ص ٤٢-٤٣).

ومن بين الأسر العريقة التي اشتهرت بدفاعها عن ثرات أهل البيت (ع) من داخل وسط سني صوفي بالأساس، نجد أسرة الحافظ بن الصديق الغماري من طنجة، وذلك بعد أن زار شيخ الطريقة، مولاي أحمد بن الصديق، المشرق، في عز تصاعد المد المعتزلي، وتأثر بكتابات محمد بن عقيل الحضرمي مؤلف كتاب "العتب الجميل لأهل الجرح والتعديل" وبعد عودته من مصر قام بنشر هذا الفكر، حيث خلفه عبد العزيز من الصديق، الذي كان يميل إلى آل البيت^٦. كما ويعتبر الدكتور عبد اللطيف السعداني من أوائل المتشيعين الذين تخرجوا من جامعة طهران سنة ١٩٦٤، أي قبل قيام الثورة في إيران، والذين اهتموا أساسا بتاريخ وراث أهل البيت (ع) خصوصا في المغرب.

ومن بين أبرز الأسماء التي سطعت في سماء التشيع بالمغرب نذكر؛ السيد حسن الإغيري من مكناس، والذي اشتهر بلقب الشيرازي، وقد درس بلبنان وكان يساعد الطالبات للانتقال إلى هناك والاشتغال بمجلة عفاف اللبنانية، والأستاذ إدريس هاني الحسيني الذي خاض غمار الدراسة الحوزوية في سوريا حيث تخصص في الفلسفة، وألف عددا من الكتب سلط من خلالها الضوء على تجربته وقراءته الخاصة لأسباب تحوله إلى المذهب الشيعي مثل كتاب "لقد شيعني الحسين"، وأخرى حاول من خلالها تقديم الجانب المعتم عليه في الفكر والفلسفة والعرفان داخل التراث الشيعي، نذكر من أبرزها "محنة التراث الآخر" و"الملا صدرا رائد الحكمة المتعالية".

ويبقى تفاعل المغاربة مع أحداث وشعارات الثورة الإيرانية التي أطاحت بالشاه رضا بهلوي سنة ١٩٧٩، ومكنت فقهاء الشيعة من إنجاح أول تجربة لهم في الحكم خلال العصر الحديث لتفتح آمالا للإسلاميين السنة في بلدان أخرى للمسير على نفس خطواتهم، من أبرز مداخل التشيع في المغرب كما في باقي الدول العربية والإسلامية، دون أن ننسى الدور الذي لعبته فيما بعد الانتصارات المدوية التي حققها حزب الله اللبناني في حربه ضد إسرائيل سنتي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٦. وقد كان من جملة من تأثر بشعارات الثورة الإيرانية مجموعة من الشباب الذين خرجوا عن الشبيبة الإسلامية، ليؤسسوا ما سمي بتنظيم "جند الإسلام" في بداية الثمانينات والذين حاولوا المزج بين الأفكار الماركسية وبين المرجعية الدينية

^٥ تزامنا مع ذكرى عاشوراء خلال السنوات ٢٠١١/٢٠١٢/٢٠١٣ قام عدد من الشيعة المغاربة بتنظيم زيارات لضريح مولاي إدريس زرهون مؤسس دولة الادارسة في ضواحي مدينة فاس، وتلاوة لطميات شيعية تعبر عن الحزن والأسى.

^٦ أنظر أركيولوجيا التشيع في المغرب - منتصر حمادة.

من خلال نموذج الثورة الإسلامية في إيران في إطار ما سموه بـ "نظرية التغيير"، وقد كانوا عمليا منفتحين على المشاركة السلمية في مختلف الميادين السياسية والدينية والثقافية والإعلامية وغيرها، لكن توجس السلطات من الطابع السري لهذا التنظيم سوف يدفعها إلى الضغط عليه ليخرج إلى العلنية في أواخر الثمانينات بمشروع جديد حمل اسم "الاختيار الإسلامي" تحت قيادة كل من محمد المرواني والمصطفى المعتمد^٧.

في نفس السياق، سوف يتأثر عدد من أتباع جماعة "العدل والإحسان"^٨ بما كتبه شيخهم الراحل عبد السلام ياسين حول عدد من رموز الشيعة كالإمام الحسين في ثورته على يزيد بن معاوية، وزيد بن علي وأخوه محمد النفس الزكية وأخوه إدريس وإبراهيم ويحيى وكلهم واجهوا الحكام الظلمة من بني أمية وبني العباس، وقتلوا حتى استشهدوا، وهم جميعا من أهل البيت (ع) (ياسين، ١٩٨٩م: ص ٢٧-٢٨-٣٢). وما ذكره حول ثورة الإمام الخميني في معرض حديثه عن القومة في كتابه المنهاج النبوي: تربية وتنظيما وزحفا، والذي يعتبر دليل الجماعة، وقد التمس العذر لبعض الأخطاء التي ارتكبت خلال هذه الثورة في كتابه الاحسان: «تصدر فتاوى مأجورة بتكفير الشيعة عامة وإن كان الثوار الإيرانيون سجنوا علماء السنة واضطهدوا السنيين... فالهيجان الثوري كان ولا يزال في كل مكان» (ياسين، ١٩٩٨: ص ٦٦).

على المستوى الرسمي، عرفت العلاقات المغربية الإيرانية مجموعة من فترات المد والجزر. فقد كان الملك الراحل الحسن الثاني صديقا لشاه إيران رضا بهلوي إلى حد منحه اللجوء السياسي بعد الإطاحة به خلال ثورة ١٩٧٩. هذه الثورة التي ستكون سببا في قطع العلاقات بين المغرب والجمهورية الإسلامية الوليدة آنذاك، خاصة بعد نهج الراحل الإمام الخميني (ق.س) سياسة ما عرف بتصدير الثورة، والتي وصلت تداعياتها إلى المغرب حيث تحمس مجموعة من الشباب الحركي من داخل الشبيبة الإسلامية لأفكارها ومواقفها مما سيدفع الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله إلى إبداء مشاعر العداء لهذه الثورة وتحذير المتعاطفين معها من التربص باستقرار البلد، بل ذهب إلى حد الإشراف على إصدار فتوى لتكفير الخميني سنة ١٩٨٠، وإبداء استعداده، لمساعدة العراق خلال حربه ضد إيران.

سوف تعود العلاقة بين البلدين سنة ١٩٩١، بعد تجميد إيران اعترافها بما يسمى بالجمهورية الصحراوية في نفس السنة، ودعما لتسوية هذا الملف من خلال قرارات الأمم المتحدة، كما سيقر المغرب من جانبه بحق إيران في استعمال الطاقة النووية لأغراض سلمية، حيث ستشهد هذه المرحلة نشاطا دبلوماسيا متزايدا بعد إعادة فتح السفارة الإيرانية في المغرب خاصة على المستويين الفكري والسياسي، حيث استقبل المغرب حينها الندوة العالمية الثانية في موضوع: "التقريب بين المذاهب الإسلامية" والتي انعقدت شهر غشت ١٩٩٦، بمدينة الرباط، عاصمة المملكة المغربية، تحت إشراف

^٧ من بين أبرز الأسماء التي ساهمت بمفاهيمها ورؤاها في صياغة هذه التجربة من داخل الفكر السياسي الشيعي آية الله الشهيد محمد باقر الصدر، والعلامة الراحل السيد محمد حسين فضل الله، والشهيد الدكتور علي شريعاني. أنظر "إرهاصات تسييس الشيعة المغاربة: حذر الدولة ورغبة الانفتاح السياسي" من إنجاز الباحث محمد قنفودي، المعهد المغربي لتحليل السياسات، دجنبر ٢٠١٨.

^٨ يروي أحد الناشطين السابقين في هذه الجماعة عن جزء من تجربته الحركية ابتداء من سنة ١٩٨١ مع الشبيبة الإسلامية قبل انتقاله إلى "أسرة الجماعة" التي ستتحول فيما بعد إلى جماعة "العدل والإحسان" حيث اعتنق مذهب أهل البيت (ع) في فترة لاحقة ليتعرض لسلسلة من المضايقات من طرف بعض الأعضاء داخل الجماعة بتهمة التشيع وإنشاء تنظيم داخل تنظيم. مما سيدفعه إلى مغادرة الجماعة بصفة نهائية سنة ١٩٨٩، الأمر الذي لم يجنبه الاعتقال في مدينة الرباط خلال الاعتصام الذي أنجزته الجماعة احتجاجا على اعتقال مجلس الإرشاد في نفس السنة، حيث سيلتحق بعدها بنشاط "الاختيار الإسلامي".

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، حينها أدلى المرحوم الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري وقد كان حينها وزيرا للأوقاف بالمغرب خلال حوار مع أحد الصحفيين بتصريح مهم على هامش هذه الندوة قال فيه: "إن التقريب بين المذاهب الإسلامية يؤدي بالتأكيد إلى تخفيف حدة الخلاف السياسي بين الدول الإسلامية الذي يعتبر من العوائق الكبرى التي تحول بين هذه الدول وبين توحيد صفوفها.. إن التقريب يساعد الأمة الإسلامية على مواجهة التحديات التي تواجهها من الدول الأخرى، وإن مجرد الحوار حول التقريب فيه خير كثير للإسلام والمسلمين، وخطوة على طريق وحدة الصف الإسلامي، وجمع كلمة المسلمين".

كما تم استدعاء العلامة الشيعي آية الله المرحوم محمد علي التسخيري من طرف الملك محمد السادس خلال الدروس الحسينية في شهر رمضان من سنة ٢٠٠٦، حيث ألقى درسا بعنوان "حركة التقريب بين المذاهب، منطلقاتها وآفاقها المستقبلية"، دافع فيه عن ضرورة التقريب بين المسلمين. وقد سبق وأن استدعى الملك الراحل الحسن الثاني المرجع الديني في لبنان آنذاك الإمام موسى الصدر سنة 1978 للمشاركة في الدروس الحسينية الرمضانية، وكان قد استدعاه قبل ذلك ليلقي محاضرة في جامعة القرويين بمدينة فاس سنة ١٩٦٨.

٤ - إيران والعرب.. بين الاستعداد ومساعي التقارب:

إن الحديث عن الوحدة الإسلامية والتقارب بين الشيعة والسنة لم يعد من الممكن فصله اليوم عن مصير العلاقات بين إيران والدول العربية، خاصة منها دول الخليج التي ما فتئ عدد منها يستعدي الجمهورية الإسلامية منذ نجاح ثورتها بقيادة الإمام الخميني (ق.س) سنة ١٩٧٩ وإسقاط نظام الشاه الصفوي الذي كان شرطيا للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة. حيث لم تتردد هاته الدول في دعم صدام حسين ماديا وبشريا للتدخل عسكريا ضد الجمهورية الإسلامية الوليدة آنذاك، وإصدار فتاوى لتكفير الأغلبية الشيعية في هذا البلد لدفع المتطوعين من أهل السنة للمشاركة في هاته الحرب التي تم إصفاء طابع القداسة عليها آنذاك.

ومنذ ذلك الحين، لم يتوقف مسلسل شيطنة إيران الذي كان من بين أبرز أهدافه تحويل الصراع العربي الإسرائيلي إلى صراع سني شيعي، وخطط الأوراق بنسبة التشيع إلى أصول فارسية في استغلال مبيت لجهل عوام المسلمين بدور الفرس الكبير في إشعاع الحضارة الإسلامية. ولو أن التشيع كمذهب لا يرتبط بدولة بعينها، إلا أن تبني الجمهورية الإسلامية في إيران رسميا للمذهب الجعفري الذي يدين به غالبية الشيعة بعد نجاح الثورة قد بوأها موقعا لدعم هذا المذهب والدفاع عنه.

لقد استطاعت إيران أن تقدم نموذجا متقدما لتفوق المسلمين بعد أن تجاوزت آثار الحرب مع العراق. كما استطاعت الحفاظ على مشروعها القومي والدخول إلى النادي النووي مع تطوير منظومتها العسكرية والتقدم في كل المجالات

العلمية والتقنية رغم الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليها الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك دون أن تخل بمبادئ الديمقراطية من خلال تنظيم الانتخابات في مواعدها ليتعاقب أكثر من ستة رؤساء على الحكم منذ تأسيس الجمهورية الحديثة.

ورغم كل استمرار العداء من طرف عدد من الأنظمة العربية وبعض أبناء شعوبها المغرر بهم، فإن الجمهورية الإسلامية في إيران لم تتوان عن تقديم يد العون ومساندة قضايا العرب والمسلمين الأساسية. حيث قدمت كل أشكال الدعم والمساندة لفصائل المقاومة الفلسطينية (خاصة حركتي حماس والجihad الإسلامي)، واللبنانية (حزب الله) خلال مواجهتهم للكيان الصهيوني، كما أبدت رغبتها غير ما مرة للتقارب وبناء العلاقات الودية مع عدد من الدول العربية التي كانت تختلف معها في الرؤى والرهانات الاستراتيجية كمصر إبان حكم الرئيس المخلوع محمد مرسي، والمغرب بعد أن جمدت اعترافها بالجمهورية الوهمية على حدوده سنة ٢٠٠٩، والسعودية التي تراجعت في النهاية عن سياساتها ضد الجمهورية الإسلامية وانخرطت معها في مساعي المصالحة.

لقد آن الأوان ليتجاوز العرب خلافاتهم مع إيران بعد السقوط المريع لمشروع الشرق الأوسط الجديد وانكشاف مخططات الإمبريالية والصهيونية في المنطقة، واستسلام أدواتهما التكفيرية بعد استبسال أبناء الشعوب المستهدفة والمقاومة في الدفاع عن الأوطان والمقدسات، حيث لا يمكن إنكار الدور الإيراني في تحرير كل من سوريا والعراق من قبضة داعش، والتمهيد لصعود محور جديد، رفقة قوى إقليمية وعالمية صاعدة كروسيا والصين، سوف يخلص العالم حتما من الهيمنة الأمريكية في إطار عالم متعدد الأقطاب. ولعل التقارب الأخير الذي حصل بين السعودية وإيران قد يشكل منعطفًا حاسمًا في العلاقات بين الجمهورية الإسلامية وكل الدول العربية بالمنطقة، وسيدفع حتما هذه الدول إلى مراجعة حساباتها مع هذا اللاعب الجديد الذي استطاع أن يفرض احترامه بالمنطقة على أصدقائه كما على أعدائه، حيث نأمل أن يساهم هذا التقارب في إنجاح مشروع التقارب المذهبي الكبير بين السنة والشيعة، ولم لا التعجيل بحلم الوحدة الإسلامية الذي لن يتم دون مراجعة العلاقات السياسية والاقتصادية بين هذه الدول على أساس رابح-رابح.

٥- من شروط إنجاح مبادرات التقريب والتواصل بين السنة والشيعة:

إذا كانت الممالك المسيحية في أوروبا قد تجاوزت خلافاتها التاريخية لكي تؤسس لصرح الوحدة والتعاون في كل مجالات التنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولتحقق خلال فترة وجيزة ما عجزت عن تحقيقه خلال قرون من التناحر باسم الدين والطائفة والعرق رغم اختلاف لغاتها وأعراقها وأديانها ومذاهبها، فإنه ليس من المستحيل تحقيق ذلك بين العرب والمسلمين الذين تجمع أغلبهم نفس اللغة، ويوحدهم نفس الدين، خاصة وأن معظم أوطانهم تزرخ بالثروات الطبيعية والبشرية التي يتم استنزافها بين جشع القوى المتكاملة ضدهم ورعونة عدد من حكامهم ومسؤوليهم.

ولإنجاح هذا المشروع، ينبغي أولاً فتح حوار جاد و مسؤول بين علماء السنة والشيعة وذلك عبر مراحل يتم البدء في أولها بالأمور المشتركة والمتفق عليها، قبل معالجة القضايا العالقة، وذلك باستحضار حكمة العلامة المرحوم السيد رشيد رضا المشهورة: "نتعاون مع بعضنا في ما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا عليه"، وخلافاً لما يتم على بعض الفضائيات الطائفية التي تحاول الانتصار لمذهب على الآخر مستغلين في ذلك جهل المشاهد بالكثير من التفاصيل التاريخية والفقهية والسياسية، حيث لا يكون هدفهم من هذا التهريج إلا زيادة عدد المشاهدين وما يرافق ذلك من إذكاء للنعرات الطائفية..

كما لا بد الاعتراف المتبادل ونبذ عقلية الإقصاء والتكفير بإعادة النظر في مبرراتها من المتون الموضوعة والتأويلات المعوجة والاجتهادات والفتاوى المختطفة من سياقاتها التاريخية، حيث يبقى الاطلاع على تاريخ الآخر والانفتاح على تجاربه بصدر رحب من أهم مستلزمات هذا التواصل المنشود. ذلك لأن البناء السليم لأرضية هذا الحوار يقتضي أولاً الاعتراف المتبادل ونبذ عقلية الإقصاء والتكفير بإعادة النظر في مبرراتها من المتون الموضوعة والتأويلات المعوجة والاجتهادات والفتاوى المختطفة من سياقاتها التاريخية.

من جانب آخر، فالوحدة المطلوبة لا تعني تنازل كل فريق عن مبادئه وطقوسه أو التنازل عن بعض الحقائق الدامغة إرضاء للفريق الآخر. ولكنها تتطلب تبني الحياد الموضوعي في التعاطي مع الأحداث التاريخية والمرويات والتفسير لدى الفريقين مع تفادي المعالجات الطائفية التي ترتبط عادة بمواقف ذاتية لبعض الفرق والمذاهب والأنظمة التاريخية التي سعت إلى ترسيخ رؤى ومواقف مغلوطة لدى جمهور المسلمين، وكذا تلافي الكثير من أحكام القيمة المناقضة للواقع والنتيجة أساساً عن حساسيات طائفية وحسابات سياسية تلبست بلباس الدين فأثمرت فتناً وحروباً تاريخية مازالت للأسف لم تضع أوزارها إلى اليوم. إذ يقول الراحل السيد محمد حسين فضل الله (ق.س) في هذا المقام: "ليس المطلوب من الشيعي أن يتسنى أو من السني أن يتشيع بقدر الدعوة إلى الحوار والتواصل والتسامح"..

كما يقتضي الأمر فتح نقاش حول الكثير من الطابوهات التي يتم التعتيم عليها عن قصد أو عن غير قصد من طرف عدد من المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي. فللقرون طويلة حاول فقهاء السنة مثلاً تفادي نقاش الخلافات التي جرت بين الصحابة (رض)، فكانوا يصرفون الناس بفتاوى صارمة عن الدخول فيما شجر بينهم بدعوى النأي بالنفس عن الطعن في بعض الصحابة الذين تورطوا في عدد من المخالفات الصريحة لكتاب الله وسنة رسوله (ص)، حيث تم إسدال إزار القداسة على كل تصرفاتهم والتي كان بعضها سبباً في المواجهات الدامية التي اندلعت بينهم بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان لتستمر أطوارها وتداعياتها مع الأجيال اللاحقة. وهو ما نتج عنه في النهاية تحريف مسار نموذج الدولة الإسلامية التي عمل على ترسيخها الرسول الأكرم (ص)، وحاول قبل وفاته ضمان استمراريتها على نفس المنهج النبوي الرسالي، لولا تدخل بعض الأجندات القبلية التي أربكت هذا الترتيب مما أسهم في صعود نموذج استبدادي متسلط استأثر بحكم المسلمين طيلة القرون اللاحقة.

وفي نفس السياق يتوجب على الشيعة أيضاً إعادة النظر في بعض المسائل العقدية كمسألة العصمة التي أثقلها الغلاة والمفوضة منهم بتأويلات انحرفت كثيراً عن إطارها الموضوعي وتسببت في انتشار آفة الغلو التي حاربها أئمة أهل البيت

(ع)، حتى جعلهم البعض فوق مراتب الأنبياء والملائكة بل أشركوهم مع الخالق في تدبير الكون وأرزاق العباد، بحيث لم تخل مراجعهم الحديثية المعتمدة من روايات تؤيد هاته الأوهام والتجاوزات رغم كل الجهود التي بذلها علماء الطائفة ومازالوا يبذلونها لتتنقية هذا التراث المتناقض من كل مظاهر الدس والافتراء، هذا بالإضافة إلى تهذيب ومراجعة شعائر المناسبات (خصوصا عاشوراء) والتي ارتبطت للأسف بعدد من الطقوس الدامية التي يستنكرها الكثير من علماء ومراجع الطائفة لأثرها في تشويه المذهب والدين بصفة عامة.

من جهة أخرى يتوجب على كل طرف أن يدرك بأن أتباع الطرف الآخر ليسوا على قلب رجل واحد. وبأن كل فريق له نصيب من التطرف والغلو كما أن له أيضا نصيبا من الاعتدال والتسامح. لذلك فالاحتجاج بأفعال بعض المتطرفين والغلاة للطعن في أتباع هذا المذهب أو ذاك وتشويه صورته لا تخدم بأي حال من الأحوال هذا التقارب. فالجماعات التكفيرية التي خرجت من رحم السلفية الوهابية لا تمثل في توجهاتها المدارس السنية العريقة في الاجتهاد والتربية والتعليم، كما أن بعض أتباع الخط الشيرازي الذين يسبون بعض صحابة الرسول (ص) ويعرضون بأهل السنة لا يمثلون كل الشيعة الذين يدين أغلبهم بالولاء لمرجعياتهم الرشيدة، حيث يحرم هؤلاء الخوض في هاته المسائل درءا للفتن الطائفية.

لقد طال هذا الصراع المذهبي أكثر مما يجب وهو لا ولم ولن يخدم في أي وقت من الأوقات ديننا الحنيف، بل على العكس من ذلك كان سببا لبث الفرقة والتناحر بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد ومنفذا يسيرا لأعداء الإسلام والمسلمين. فمتى يحين الوقت لنندع هذا التعصب الأعمى، ونترك للعقل المتنور والفكر الحر بحيادية وتجرد إيجاد الحلول المناسبة للخروج من هذا المأزق التاريخي؟

إن الوحدة اليوم مطلوبة أكثر من أي وقت مضى، بالنظر إلى ما وصل إليه العالم الإسلامي من تشتت في الرأي وتناقض في المواقف والخيارات السياسية والاستراتيجية، واندحار على مستوى القيم الإنسانية التي دعا الإسلام، وتراجع في كل المجالات العلمية والتقنية والأدبية والفنية ليسقط في مواجهات عقيمة لا تخدم إلا مصالح الاستعمار الأجنبي وبعض الأجندات المشبوهة في المنطقة. وذلك استجابة لقوله تعالى في سورة آل عمران: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (آل عمران: ١٠٣) ولقوله تعالى في سورة الأنبياء: «وَأَنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء : 92).

ومن يسعى إلى إشعال الفتن بين المسلمين بتكفير هذه الطائفة أو تلك، أو تشويه صورتها بما قد يصح في بعض الحالات ولا يصح في أغلبها، إنما يسعى إلى الطعن في الإسلام وتفكيك وحدة المسلمين. لأن الآخر يرى بأن هؤلاء على قلب رجل واحد ما داموا ينتسبون جميعا إلى الإسلام، وهو بذلك يخالف الأمر القرآني بالوحدة والاعتصام بحبل الله ونبذ الفرقة والخلاف. وعلى عكس ما يردده بعض المتطرفين والجهلة فإن أرضية التقريب والوحدة بين المسلمين تبقى متاحة إذا ما تنازل كل فريق عن أنه الطائفية ومد يده للطرف الآخر بمودة وإخاء، خاصة وأن الخلاف في الأصول

غير وارد، وكل من يدعي ذلك فهو إنما يستند إلى بعض النصوص الموضوعة أو المواقف والتأويلات المنحرفة مما لم تكن يوماً محط إجماع بين علماء كل مذهب.

المصادر والمراجع

١. حسن إبراهيم حسن (١٩٨٩)، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية.
٢. ساعد خميس وآخرون (٢٠٠٧)، من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي، دار بهاء الدين، الجزائر.
٣. شوقي ضيف (١٩٩٦)، عقيدة الموحدين بين التشيع والاعتزال، مجلة مجمع اللغة العربية عدد ٧٦.
٤. عبد السلام ياسين (١٩٨٩)، نظرات في الفقه والتاريخ، ط١، دار الخطابي للطباعة والنشر.
٥. ----- (٢٠١٨)، رجال القومة والإصلاح، دار لبنان للطباعة والنشر.
٦. ----- (١٩٩٨)، كتاب الاحسان، دار لبنان للطباعة والنشر.
٧. عبد اللطيف السعداني (٢٠٠٢)، حركات التشيع في المغرب ومظاهره، المنهاج عدد ٢٧.
٨. شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي (١٨١٢)، مختصر التحفة الاثني عشرية، المطبعة السلفية، القاهرة.
٩. عباس الجراري (٢٠٠٦)، لماذا لم يتشيع المغاربة، مجلة الأكاديمية عدد ٢٣.
١٠. ----- (١٩٩٩)، عاشوراء عند المغاربة، منشورات النادي الجراري.
١١. إدريس هاني، "التشيع كمكون سوسيو-ثقافي مغربي". نشر بجريدة هيسبريس الإلكترونية بتاريخ الأربعاء ٠٢ شتنبر ٢٠٠٩.
١٢. خولي، أمين، (١٩٥١م)، مالك بن أنس، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية